وهل الإيمان إلا الحب ؟

(١٤)

حب
العرب و العربية

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وَفِي إِحْدَى المُدُنِ السُّورِيَّةِ الجنُوبِيَّةِ، أَرادُوا صَلاةَ الجُمُعَةِ، فَتَوجَّهَ الوَفْدُ إلى حَيْث تَرتَفِعُ مِئذَنَةٌ مِن المَآذِنِ، وَدَخَلُوا المَسْجِدَ وهيَّؤوا أَنْفُسهُم لأَدَاءِالصَّلاةِ.

وَلمَّا صَعِدَ الخَطِيبُ المِنْبَرَ... انتبَهَ الجَميعُ إليهِ، فَحمَدَ اللهَ تَعالَى، وصلَّى على نَبيِّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ:

تَحَدَّثْنَا فِي الخُطَبِ المَاضِيَةِ عَنْ أَنواعِ الحُبِّ وَنَماذِجَ مِنْهُ، وَفِي هَذَا اليَومِ نَتَحدَّثُ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعالَى عَن حُبِّ العَرَبِ والعَرَبيَّةِ:

مِنْ وَصَايَا المُصْطَفَى ﷺ
فِي حُبِّ العَرَبِ وَالعَرَبِيَّةِ

فَمِنْ وَصَايَا الرَّسُولِ ﷺ في ذَلِكَ، قَولهُ:

«إنَّ اللهَ عَـزَّ وجـلَّ خَلَـقَ السَّمَـوات سَبْعـاً واختَارَ العُلَى مِنهَا وَأسْكَنَها مَنْ شَاءَ من خَلقِهِ ، ثُمَّ خَلقَ الخَلْقَ فاخْتَارَ مِن خَلقِهِ بَنِي آدمَ ، واخْتَـارَ مِـن بَنِـي آدمَ العَـربَ ، واخْتَـــارَ مِـن العَربِ مُضَر ، واختَارَ من مُضَر قُرَيشاً ، وَاخْتَارَ مِن قُرَيشٍ بني هَاشِم ، وَاخْتَارَنِي مِن بَني هَاشِم ، فَأَنَا خيَارٌ من خيَارٍ ، فَمَنْ أَحبَّ العَربَ فَبِحبِّي أَحبَّهم، وَمن أَبغضَ العَربَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم».

وَمِن وَصَاياهُ أَيضاً: «كَثْرةُ العَرَبِ وَإيمَانُهم قُـرَّةُ عَينٍ لِي ، أَلا فَمَن أَقـرَّ عَيْنِي أَقرَّ اللهُ عينهُ».

وَمِنْ أَدْعِيةِ رَسولِ اللهِ ﷺ: «إنِّي دَعَوتُ لِلعَرَبِ فَقُلتُ: اللَّهمَّ! مَنْ لَقيكَ مِنهُم مُؤْمِناً مُوقِناً بِكَ مُصدِّقاً بِلقَائِكَ فَاغْفِرْ لَهُ أيَّامَ حَيَاتِهِ ، وهِيَ

دَعْوةُ إبراهِيمَ وَإسمَاعِيلَ ، وَإنَّ لِواءَ الحَمْدِ يَومَ القِيَامَةِ بِيَدِي ، وَإنَّ أقربَ الخَلْقِ مِنْ لِوائِي يَومَئذٍ العَرَب».

لِمَاذَا نُحبُّ العَربَ وَالعَربيَّةَ؟!

وَطَرحَ الخَطِيبُ سُؤَالاً: مَا هِيَ الدَّوافِعُ وَراءَ حُبِّ العَرَبِ والعَرَبيَّةِ؟

وَأَجَابَ قَائِلاً:

١ ـ لأنَّ العَرَبيَّةَ لغةُ القُرآنِ الكَرِيمِ ، وَبالتَّالِي فَهِيَ مَحْفُوظَةٌ بِحِفْظِ كِتَابِ اللهِ تَعالَى ، كَمَا فِي قَولهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، فاللُّغةُ هِيَ خِزَانَةُ الفِكْرِ الإنسَانِيِّ ، وَالعَربيَّةُ هِيَ لُغَةٌ عَرِيقَةٌ صَافِيَةٌ ،

فَمُنذُ إِسْمَاعِيلَ عَليهِ السَّلامُ وَهِيَ تَزْدَادُ نَصَاعَةً وَبَرَاعَةً ، حَتَّى إذا أَرْسَلَ اللهُ المُصْطَفَى خَاتمَ الأَنْبياءِ أنزلَ عَليهِ القُرآنَ بِلسَانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ ، وَوَقْتَئِذٍ كَانَ العَرَبُ أُمَراءَ البَيانِ ومُلوكَ الفَصَاحَةِ.

فَتَحَدَّاهُم القُرآنُ بِأَن يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ، ثُمَّ أَكَّد لَهُم أَنَّهم لَنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ أَبداً، وَبالفِعْلِ حَاولُوا مَرَّةً تلوَ مَرَّة ، لكنَّهم عَجَزوا ، وَفِي هَذا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلى أَنَّ القُرآنَ مُعْجِزةٌ خَالِدَةٌ إلى يَومِ القِيَامَةِ ، مِصْداقُ ذَلِكَ قَولهُ تَعالىَ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وَبالتَّالي فَهَذَا القُرآنُ ليسَ إلاَّ كَلمَاتٍ مُؤَلَّفةً من حُروفِ لُغَتِهم ، لِذَلكَ أَوْردَ اللهُ فِي مَطْلعِ سُورٍ من كِتَابهِ حُروفاً مُقطَّعةً للتَّنْبيهِ إلى أَنّ هَذا الكِتَابَ مُؤَلَّفٌ مِن جِنْسِ هذهِ الحُروفِ ، مِصْداقُ ذلكَ قَولُه تَعالَى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وَقوله تَعالَى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

[الزمر: ٢٧ ـ ٢٨].

٢ ـ وَلأنَّ الرَّسولَ ﷺ أَوصَانَا وَوَجَّهنَا إلى حبِّ العَرَبِ والعَرَبيَّةِ ، مِصْدَاقُ ذلكَ قَولهُ:

«أَحِبُّوا العَرَبَ لِثَلاثٍ ، لأنِّي عَرَبيٌّ ، والقُرآنُ عَربيٌّ ، وكلامُ أَهْل الجنَّةِ عَربيٌّ».

وَقولهُ صَلَواتُ اللهِ عَليهِ ، وهوَ يُوجِّهُ أحدَ صَحَابَتِه الكِرام: «يَا سَلمانُ! لاَ تبْغضْنِي فَتُفَارِقَ دِينكَ».

قَالَ: كَيفَ ذلكَ يا رَسُول اللهِ؟

قَالَ: «تُبْغِضُ العَرَبَ فَتَبغضني».

وَقولُهُ صَلواتُ اللهِ عَليهِ: «أَحبُّوا العَرَبَ وَبقاءهُم ، فَإنَّ بَقَاءهُم نُورٌ في الإسْلامِ ، وَإنَّ فَنَاءَهُمْ ظلمَةٌ في الإسْلامِ».

٣ ـ وَنُحبُّ العَربَ والعَربيَّةَ ، لأنَّ الأَجدادَ كَانَ لَهُم فَضْلٌ كَبِيرٌ عَلى أُمَمِ العَالَمِ قَاطِبَةً ، خَاصَّةً فِي مَجَالاَتِ العُلومِ ، وَمنَ الأمْثِلةِ عَلى ذَلِكَ مَا تَرْوِيهِ الكُتُبُ المُعْتَمدةُ الصَّحِيحَةُ:

يَقُولُ المُفَكِّرُ الكَبِيرُ (آلبر شَامدُور) فِي كِتَابِهِ (حَمْراء غَرْنَاطَة) مَا يَلي:

(لَقَدْ عَاشَ العَرَبِيُّ فِي أَرْضٍ قَاحِلةٍ ، تُلْهِبُ الشَّمْسُ رِمَالهَا ، فاتَّخَذَ النُّجومَ دَلِيلاً ، وَالعِلمَ مُرْشِداً سَبِيلاً ، واسْتَطَاعَ أَنْ يَجمَعَ عِلم العَالمِ فِي أَقلّ مِن مِئةِ عَامٍ ، كَمَا استطَاعَ أَن يفتحَ نِصْفَ العَالمِ ، فِي أَقلّ مِنْ مِئةِ عَامٍ أَيضاً.

وَتَركَ لَنا ـ فِي حَمراءِ غُرْنَاطَة ـ ، آثارَ عِلْمِهِ وفنِّهُ ، وآثارَ مَجدِهِ وفخَارِهِ ، وإنَّ هذا العَرَبيّ الذي أَقْعَدهُ الهَوانُ بعضَ قُرُونٍ ، قَدِ استَيقَظ اليَوم ، وَأَخَذَ يصرخُ فِي وَجهِ العَالمِ ، هَا أَنا أعُودُ إلى الحَيَاةِ ، حَياةِ العِلمِ والنِّضَالِ والحُرِّيةِ ، ... ومَنْ يَدْرِي؟ قَد يَعودُ اليومُ الذي تُصْبحُ فِيه بِلادُ الغَربِ مُهَدَّدةً بِالعَرَبِ ،

فَيهبطونَ عَليهمِ مرَّةً جَديدةً ، لِيُحَطِّمُوا العَدوَّ التَّقلِيديَّ!!).

فَفِي مَجالاتِ الفِيزْيَاءِ أَيُّهَا الأَحْبَابُ المُسْلِمُون: لَمَعَ مِنَ العَرَبِ المُسْلِمينَ شَخْصِيَّاتٌ كَبِيرَةٌ ، كَالكِنْدِيِّ ، وابنِ يُونُس الذي اخْتَرَعَ رَقَّاصَ السَّاعةِ ، وَالبَيْرونيِّ الذي اسْتَنْبَطَ شَكْلَ الظِّلِّ ، والحَسَنِ بن الهَيْثَم صَاحبِ نَظَرِيَّاتِ الانْعِكَاسِ وَالانكِسَارِ!!

وَفِي حَقْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ نَبغَ كَثِيرُون ، كَالكَاشِيِّ وَاضِعِ أُسُسِ الكَسْرِ العِشْرِيِّ ، والخَوَارِزْميّ وَاضِع عمل الجَبْرِ ، والطُّوسيّ الذي لهُ العَدِيدُ من المُؤلَّفاتِ فِي المُثَلَّثَاتِ والهَنْدَسَةِ ، وَبني مُوسَى الذين حَسَبُوا طُولَ الدَّرَجةِ الوَاحِدَةِ مِن خَطِّ النَّهارِ ، وَطُول السَّنَة

الشَّمْسِيَّة ، وَأَقَامُوا المَراصِدَ وَمِنْها وَاحِدٌ عَلى جَبَلِ قَاسِيُونَ بِدِمَشْق!!

وَفي حَقْلِ الكِيمْيَاءِ: كَانَ العربُ أَوّلَ مَن أَنْشَأَ مَصَانِعَ الوَرَقِ فِي الأنْدَلُسِ... وَهَكذَا.

وَصَدقَ (غُوستَاف لُوبُون) عِنْدَمَا قَالَ: لَقَدْ كَانَتْ كُتُبُ العَرَبِ المَرْجِعَ الوحِيدَ لِلدِّرَاسَةِ الجامِعيَّةِ فِي أَوروبة أَكثر مِن خَمْسَة قُرُون ، وظلَّتْ عُلومُ الطِّبِّ خَاصَّةً ، المَصْدَرَ الوَحِيد للدِّرَاسَةِ ، خِلاَلَ ثَمَانِيةِ قُرُونٍ!!

٤ ـ وَنُحِبُّ العَربَ وَالعَربيَّةَ أَيضاً ، لأنَّه لابدَّ لِمَن أَرادَ فَهْمَ كلّ العُلوم الشَّرعيَّةِ إلاَّ أَن يتفهَّمَ ويتعلَّمَ أُمورُ العَرَبيَّةِ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا قَالهُ الإمامُ ابنُ تَيْميَّة رَحمهُ اللهُ تَعالَى: (لاَبدَّ فِي تَفْسيرِ القُرآنِ وَالحَديثِ مِن أَنْ يُعرَفَ مَا يَدلّ عَلى مُرَادِ اللهِ وَرَسُولهِ مِنَ الألفَاظِ ، وَكَيْفَ

يُفهَم كَلاَمهُ ، فَمَعْرِفَةُ العَرَبيَّة التي خُوطِبْنا بِهَا مِمَّا يُعينُ عَلى أَنْ نَفْقَهَ مُرَادَ اللهِ وَرَسُولهِ بِكَلاَمِهِ ، وَمَعْرِفَةِ دَلاَلَةِ الأَلفَاظِ عَلى المَعَانِي ، فَإِنَّ عَامَّةَ ضَلاَل أَهْلِ البِدَعِ كَانَ بِهَذَا السَّبَبِ ، فَإِنَّهُم صَارُوا يَحْمِلُونَ كَلاَم اللهِ وَرَسُولهِ عَلى مَا يدَّعُونَ أَنَّه دَالٌّ عَليهِ ، وَلاَ يكُون الأَمْرُ كَذَلِكَ).

٥ ـ والعَرَبيَّةُ هِيَ إِحْدَى العَوامِلِ القَوِيَّةِ الَّتي تَجْمَعُ العَرَبَ والمُسْلِمينَ ، وَلِذلكَ تَنبَّهَ الاستعْمَارُ إِلى مَسْأَلةٍ مُهِمَّةٍ ، وَهِيَ مُحَاوَلةُ القَضَاءِ عَلى اللُّغةِ العَربيَّةِ ، كَمَا قَالَ الأَدِيبُ الكَبِيرُ مُصْطَفى صَادِق الرَّافِعيّ:

(لاَ جَرَمَ كَانَتْ لُغَةُ الأُمَّةِ هِيَ الهَدَفَ الأَوَّلَ لِلمُسْتَعمرينَ ، فَلنْ يَتحوَّلَ الشَّعبُ أَوَّلَ مَا يتحوَّل إلاَّ مِن لُغَتِهِ ، إِذْ يَكُونُ مَنْشَأُ التَّحُّول مِن أفكَارِهِ وَعَواطِفهِ وآمَالهِ ، وَهُو إذا انقَطَعَ مِن

نَسَبِ مَاضِيهِ فَليسَ كَاللُّغَةِ نَسبٌ لِلعَاطِفَةِ وَالفِكْرِ ، حَتَّى إنَّ أَبناءَ الأَبِ الوَاحِدِ لو اخْتَلَفَتْ أَلسنَتهُم فَنَشَأَ مِنهُم نَاشئ عَلى لُغَةٍ ، وَنَشَأَ الثَّاني عَلى أُخْرى ، والثَّالثُ على لُغَةٍ ثَالِثةٍ ، لَكَانُوا فِي العَاطِفَةِ كَأَبنَاءِ ثَلاثَةِ آباءٍ!!).

فَيَا أيُّها المُسْلِمونَ: إنَّ تَعلُّم العَرَبيَّة وحبَّها من صَمِيمِ الدِّينِ الحنِيفِ ، حَيثُ لا يُفهَمُ القُرآنُ وَلا السُّنَّة إلاَّ بِفَهمِ هَذهِ اللُّغَةِ ، وَبالتَّالي فَيَجِبُ على كُلّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَتعلَّم العَربيَّة لِيتمَكَّن مِن تَعلُّمِ دِينهِ الحَنيفِ.

ثُمَّ قَرأَ قَولهُ تَعالَى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هَيَّا يَا شَبابَنَا: إلى تعلُّمِ العَرَبيَّةِ

وَبعدَ انتهَاءِ الخُطْبَةِ ، وَقَفَ المُصلُّون

صُفُوفاً مُنْتَظَمةً خَلفَ الإمَامِ ، وبَعْدَ الصَّلاةِ وَالأَوْرَادِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ ، تَقدَّمَ الشَّبابُ مَعَ أَساتذَتِهِمْ لِمُصَافَحَةِ الشَّيخِ الخَطيبِ ، وشُكْرِه عَلى هَذهِ الخُطْبةِ الرَّائِعة ، فَالكَثيرُ مِن شَبَابِنَا ـ وَللأسَف الشَّديدِ ـ لاَ يَعْرِفُ عَن لُغَتِهِ وَمَكانَتِهِ قَومهِ إلاَّ الشَّيءَ القَلِيلَ ، بَلْ إنَّكَ لتعْجَبُ أنَّ كَثيراً مِنَ الشَّبابِ النَّاشئ وَهوَ يُدخِلُ فِي كَلامِهِ العَرَبيِّ كَلِمَاتٍ أَجْنَبيَّةً ليُبيِّنَ لِلمُسْتَمِعِ أنَّه مُثقَّفٌ وَخَبِيرٌ في اللُّغَاتِ الأُخْرَى ، وَهذَا مِن نَقْصِ وضَعْفِ شَخْصِيَّةِ أُولئكَ الشَّباب!!

وَقَالَ الشَّيخُ (يَحْيَى): إنَّ سَببَ سِيَادَةِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ عَلى اللُّغَاتِ الأُخْرَى ، هُوَ أَنَّ الكِتَابَ الخَاتمَ الخَالِدَ ، وَهوَ القُرآنُ الكَرِيمُ نَزلَ بِهَذِه اللُّغَةِ الجَمِيلةِ ، وَقدْ تَكفَّل اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعالَى بِحِفْظِهِ:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فَاللُّغةُ العَرَبيَّةُ مَحفُوظَةٌ لاقْتِرانهَا بِالقُرآنِ الكَرِيمِ.

وَقَالَ الأُستَاذُ (زَينُ العَابِدين): أَحْسَنتَ يَا شَيْخَنَا الخَطِيبَ ، وَبَارَكَ اللهُ فِيكَ ، وَجَزَاكَ عن هَذِهِ الأُمَّةِ كُلّ خَيرٍ ، فَهَذِهِ لَفْتَةٌ رَائِعةٌ إلى ضَرُورَةِ الاهْتِمَامِ بِالعَرَبيَّةِ وَالعَربِ ، كَيفَ لاَ؟ وَالرَّسُولُ الخَاتَمُ ﷺ كَانَ مِنَ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ عَلى قَدرٍ لاَ يُدَانيهِ فيهِ أَحَدٌ.

وَقَدْ صَرَّحَ بِذلكَ فِي أَكثر مِن مَوْطِنٍ ، وَقَررَ أَنَّهُ أُوتِيَ جَوامِعَ الكَلِمِ: أَي أَنَّهُ يتكلَّمُ بالكلامِ المُوجزِ ، القَليلِ اللَّفظِ ، الكَثيرِ المَعَاني.

مِن ذَلكَ مَا وَرَدَ فِي صَحيحِ البُخَاريِّ وَهوَ قولُ رَسولِ اللهِ ﷺ: «بُعثْتُ بِجَوامِعِ الكَلمِ ، وَنُصِرتُ بالرُّعبِ ، وَبينَا أَنا نَائِمٌ أُوتيتُ

بِمفاتِيحِ خَزَائنِ الأَرْضِ فوضِعتْ فِي يَديَّ».

وَخَتَم الجلسَةَ الشَّابُّ (حُسَيْن) وَهوَ يُرَتِّلُ قَولَهُ تَعالَى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وَآخِرُ دَعْوانا أَنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِين